الا للعتمة والضوء. وفي هذا العالم الممتد الى الابد من السواد القاتم، تبدو الساعة مجرد قيد حديدي يفرز رعباً وترقباً مشوباً. وفي اللحظة التالية فككتها بهدوء واطرحتها وسمعتها تخبط بصوت مخنوق على الارض»(٣٤). وبطرحه الساعة على الارض، يتخلص نهائياً من سجن الماضي وحصاره، ويبتدىء عملياً خطواته نحوالحياة/الفعل، وعندئذ يصطدم بجندي اسرائيلي، فيأسره وهو مسلح باحساس جديد غريب. لقد قام بعملية حسابية سريعة، ادرك منها انه: «قبل دقائق كان كل شيء في هذا الكون ضدي تماماً، وكانت الامور كلها في غزة وفي الاردن، تعمل في غير صالحي. وكنت اقف هنا، هنا بالضبط، في رقعة محاطة بالخسائر من كل جانب. فتعال اقول لك شيئاً مهماً: ليس لدي ما اخسره الآن. ولذلك فقد فاتت عليك فرصة ان تجعلني ربحاً»(٣٥). عندما طرح حامد بعيداً حساب الخسائر، سيطر على خصمه، وفي الوقت نفسه، وعبر تداخل الزمن وتشابكه، تخطو مريم خطوتها الاولى في المسار ذاته، كي تتخلص من ماضيها الذي يحاصرها في شخص زكريا، الذي يلح عليها للتخلص من الجنين، والا طلقها. وهنا تلعب الساعة المعلقة على الحائط ــ كرمز للماضي الذي يحاصرها ــ دورها في توتير اعصاب مريم، بدقاتها المتعاقبة، فتدفعها نحو الخطوة الاولى ــ الفعل، فتطعن زكريا بسكين المطبخ الحادة في عانته، معلنة بذلك دخولها مع حامد، في الوقت ذاته، دائرة الفعل. وقد كان لابد من اتخاذ هذا الموقف لان الامور كافة لم تعد تحتمل التأجيل والتسويف. وهكذا فإن الرواية تريد ان تقول: «انه عند المواجهة يتحول حساب الخسائر بالنسبة للفلسطينيين الى حساب ارباح... يصبح الزمن رفيق الفدائي بعد ان كان خصم اللاجيء»(٣٦).

والفعل هنا، وان كان مايزال على مستوى فردي، فقد كان خطوة طليعية لطرح حصار الماضي وحساب الخسائر، للحلول في البحر الجماهيري. لماذا بقي الفعل عند حامد في هذه الحدود؛ ولماذا لم يتقدم بفعله خطوات اخرى في المسار نفسه؟. ان الواقع ــ آنذاك ــ لم يكن بامكانه ان يقدم اكثر من هذه المستويات البطولية، لذلك فإنه: «من الخطأ، فنياً على الاقل ــ كما يقول غسان ــ ان يفعل حامد اكثر مما فعل»(٣٧).

ب ــ البطل المقاوم في الماضي: اذا كان الصدق، الفني والموضوعي، قاد غسان الى الوقوف بفعل حامد عند الحدود السابقة؛ فقد قادته المعرفة التاريخية الى تعزيز هذا الفعل ــ المقاوم، عن طريق الارتداد الى الماضي، ليقدم من خلاله لحامد ولجميع الذين يتطلعون وينتظرون، حافزاً، من ماضيهم التاريخي القريب، يعزز لديهم الايمان بهذه البداية العملية للفعل ــ المقاوم، كي يعرفوا ان هذا الفعل طالما مارسوه، وقدموا من خلاله التضحيات الجسام، وهم اذ يعودون اليه الآن، انما يحققون الانسجام الذاتي مع الواقع التاريخي الذي كان، ثم انقطع لفترة، بسبب عوامل طارئة. هذا الحافز الذي يتجسد فنياً، من خلال «منصور» و«والده»، في القسم الأول من (عن الرجال والبنادق) ١٩٦٨، انما يوضح سبب ارتداد غسان الى الماضي، في مسيرته الروائية، انطلاقاً من الرأي القائل: ان غسان يكتب روائياً حركة المجتمع الفلسطيني.

وفي قصته «عن الرجال والبنادق» نرى البطل المقاوم، القادم من الماضي، مغرم